﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـــدمُ إجـابـةِ دعائِهم إكـرامٌ لـلـنَّـبـيِّ كـونَـهُ فيهِم وإهـانـةٌ لـهـم لـعـدمِ اسـتـحـقـاقِـهـم الاستجابةَ

لما علَّقوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليمٍ على تقديرِ كينونةِ ما جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ حقًّا في الآيةِ السّابقة، أتت هذه الآيةُ جوابًا لكلمتِهم الشنعاءِ، وبيانًا للموجبِ لإمهالِهم والتَّوقُّف في إجابةِ دعائِهم، فأخبرَ تعالى أنَّهم مستحقّون للعذابِ، لكنَّه لا يعذِّبُهم عذابَ استئصالٍ، والنَّبيُّ ﷺ فيهم إكرامًا له، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾: العذابُ هو الإيجاعُ الشَّديدُ والنَّكالُ والعقوبةُ، وقيل: أصلُ العذابِ: الضَّربُ، ثم استُعيرَ ذلك في كلِّ شدَّةٍ، ويكون بإهلاكٍ وإفناءٍ للقوَّةِ والغِلَظ والحَيَويَّة المنبثَّة في البدنِ، أي: تجريدٌ منها بإيقاعِ الآلامِ المؤدّية إلى ذلكَ، كالضَّربِ المبرِّح بصوَرِهِ والجَلْدِ والكيِّ بالنّار وقَطْعِ الأعضاءِ إلخ، وأيضًا بالإجاعةِ والإعطاشِ ونحوهما، وكذلكَ يصدقُ بإيقاعِ الإهانةِ والإذلالِ لذوي الكبرِ والاعتزازِ، فهو يتفاوتُ في الأنواعِ والشِّدَّةِ والأثرِ[2].

ومعنى ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾: عذابَ الإفناءِ والاستئصالِ، كما استأصلَ الأممَ السّابقةَ الكافرةَ[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/483، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/19.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عذب).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وجـودُ النَّـبـيِّ يـمـثِّـلُ حـالـةَ الإمـهـالِ، والاسـتـغـفـارُ يـمـثِّـلُ حـالـةَ الإقبالِ

أجمعَ المتأوِّلونَ على أنَّ اللَّهَ ﷻ لم يعذِّب قطُّ أمَّةً عذابَ استئصالٍ، ونبيُّها بين أظهرِها، فاللَّهُ تعالى مع عظمتِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ وعلمِهِ وقدرتِهِ سبحانه ما كان ليعذِّبَ الكفّارَ عذابَ استئصالٍ مع استحقاقِهم له، والنَّبيُّ ﷺ مقيمٌ بين أظهرِهم؛ وذلك إظهارٌ لمكانةِ النَّبيِّ ﷺ وفضلِهِ على العالمينَ؛ فهو الرَّحمةُ المهداةُ والأمانُ للعالمينَ.

ولمّا كان وجودُهُ ﷺ بين أظهرِهم غيرَ دائمٍ، اقتضت رحمتُهُ الَّتي وسعتْ كلَّ شيءٍ أن يجعلَ لهم أمانًا آخرَ، فنفى عنهم عذابَ الاستئصالِ طالما أنَّهم يستغفرونَ، أي: جعلَ الاستغفارَ مانعًا ثابتًا من وقوعِ العذابِ - ولو لم يكنْ هذا الاستغفارُ صفةً ثابتةً فيهم - وذلك ترغيبٌ وتذكيرٌ وحضٌّ على التَّوبةِ من الشِّرك، وتخويفٌ في الوقت ذاتِهِ من أنَّ العذابَ يوشكُ أن يقعَ إن انعدمَ الاستغفارُ، وأشارَ إلى أنَّ هذا الاستغفارَ يشملُ كلَّ الذنوبِ التي تتعلَّقُ بحياةِ الأمَّةِ أفرادًا وجماعاتٍ، بدءًا من المجالِ العقدي ثُمَّ التَّشريعي ثم الأخلاقي.. حتَّى يصلَ الاستغفارُ إلى أدقِّ شؤونِ الإنسانِ ممّا لَهُ اتِّصال بما يحفظُ كيانَ الأمَّةِ كلِّها من الاستئصالِ.

واختلف المفسِّرونَ في المقصودِ بـ ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على معانٍ منها: ما كانَ اللَّهُ ليعذِّبَ الكفّارَ، والمؤمنونَ بينهم يستغفرونَ، أو ما كان اللَّهُ معذِّبَهم، وفي أصلابِهم من سبقَ لَهُ في علمِ اللَّهِ أنَّه يؤمنُ، ويستغفر، أو ما كان اللَّهُ معذِّبَ الكافرينَ، وهم بحالِ توبةٍ واستغفارٍ من كفرِهم لو وقع ذلك منهم[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/521 - 522، والقرطبي، أحكام القرآن: 7/399.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ:

الواوُ: استئنافيَّةٌ، والكلامُ مسوقٌ جوابًا وبيانًا لموجبِ إمهالهم، والتَّوقُّف في إجابة دعائِهم، لمّا طلبوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليم إن كانَ ما جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ حقًّا.

بلاغةُ الكنايةِ:

إن كانتِ الآيةُ ليست نصًّا في استحقاقِهم العذابَ إلّا أنَّ عدمَ استجابتِه سبحانه لطلبهم في نزولِ العذابِ، وتقييدِ نفي العذابِ بكونِ الرَّسولِ معهم، فيهِ كنايةٌ عن ما يلي:

المنكرونَ يستحقّونَ العذابَ لكنَّ وجودَ الرَّحمةِ فيهم دافعٌ لنزولِه

أوَّلًا: استحقاقُهم العذابَ، وأنَّ تأخيرَ عذابِهم سببُه وجودُ النَّبيِّ ﷺ ويؤكِّد استحقاقَهُم للعذاب أنَّهُ أُتبعَ بقولهِ سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

ثانيًا: إعلامٌ بكرامةِ رسولهِ ﷺ عنده، وتعظيمٌ لقدرِه أن يعذِّبَ قومًا هو بينهم تعظيمًا لحرمتِه؛ لأنَّهُ جعلَ وجودَهُ بين ظهراني المشركينَ معَ استحقاقِهم العقابَ سببًا في تأخيرِ العذابِ عنهم، فالمعنى الظّاهرُ هو وجودُ الرَّسول بين هؤلاءِ، أمّا المعنى المكنَّى عنهُ في النَّصِّ الكريم، فهو الكرامةُ والتَّشريفُ الذي يسبغهُ الباري على حبيبِه المصطفى ﷺ.

ثالثًا: إعلامٌ بأنَّ "إرسالَهُ فيهم رحمةٌ لهم ونعمةٌ عليهم، فلم يجز أن يعذِّبَهم وهو فيهم حتى يستحقّوا سلبَ النِّعمةِ بإخراجِه عنهم"[2].

رابعًا: أنَّ العذابَ يترصَّدهم، وأنَّهم معذَّبون لا محالةَ بدليلِ قولهِ تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ على معنى: وأيُّ شيءٍ ثابت لهم حتَّى ينتفي عنهم العذابُ، فهم معذَّبون لا محالةَ![3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/314.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/91، والحجازي، التفسير الواضح: 1/825.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

اسـمُ الجلالةِ يوحي بصفةِ الرَّحمةِ والحكمةِ والعلمِ

عبَّرتِ الآيةُ بالاسمِ الجليلِ (اللّه) إظهارًا لما لَهُ سبحانه من "صفاتِ الكمالِ والعظمةِ والجلالِ"[1]، فهذا الاسمُ دالٌّ على الذّاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّة كلِّها، بينما سائرُ الأسماءِ لا يدلُّ آحادُها إلّا على آحادِ المعاني من علمٍ وقدرةٍ، أو فعلٍ أو غيرِه، أي مع عظمتِه وجلالِه وكمالِه وعلمِه وقدرتِه سبحانه لن يعذِّبَهم، وأنت بين أظهرِهم، ولن يعذِّبَهم، وهم يستغفرونَ، وذلك لرحمتِه بعبادِه، وحكمته لما فيه مصلحتُهُم، وحكمتهُ في اختيارِ الأصلحِ، ولما فيها من المناسبةِ بين اسمِ الجلالةِ ودعائِهم بـ﴿ٱللَّهُمَّ﴾.

بلاغةُ أسلوبِ النَّفي:

دفعُ العذابِ عنِ المشركينَ بسببِهِ ﷺ أرفعُ شأنًا من استغفارِهم

تظهرُ بلاغةُ النَّفي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ في أمرين:

الأوَّلُ: تأكيدُ النَّفي باللّامِ المؤكِّدةِ الَّتي يسمّيها النَّحاةُ بلامِ الجحودِ، وهي لامٌ دخلت على الفعلِ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، وسُبِقَت بالفعلِ النّاقصِ ﴿كَانَ﴾؛ لتقويتها النَّفي الَّذي يسبقُها وتوكيده، وهذا على رأي البصريّين الَّذين يعدّونَ اللّام زائدةً.

الآخرُ: نفيُ إرادةِ العذاب، بجعلِ خبرِ كان المقدَّرِ هو الإرادةُ المنفيَّةُ على رأي الكوفيّين الذين يعدّون اللّام غيرَ زائدةٍ، أي: (وما كان اللّهُ مريدًا لتعذيبهم)، وانتفاءُ الإرادةِ للعذابِ أبلغُ من انتفاءِ العذابِ[2].

وعلى كلا الرَّأيين يكونُ استغفارُهم دونَ تلك الكينونةِ الشَّريفةِ، إمّا بتأكيدِ النَّفي باللّام أو بتقديرِ نفي إرادةِ العذابِ دونَ نفي العذابِ؛ لأنَّ نفيَ الإرادةِ أبلغُ، فشتّانَ ما بينَ استغفارِهم وكينونتِه ﷺ فيهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/271.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/312.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/312.

المرادُ المتعيّنُ من العذابِ هو عذابُ الاستئصالِ، وأنَّ القرينةَ عليهِ هي تأكيدُ النَّفي الَّذي يصرفُهُ إلى أشدِّه وأفظعِه، فعذابُ غيرِ الاستئصالِ كالقحطِ؛ إذ وقعَ عليهم، والنبيُّ ﷺ بين أظهرِهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارِع:

الاستمرارُ في تأخيرِ العذابِ عنهم موقوتٌ ببقاءِ النَّبيِّ ﷺ فيهم

أتى بالفعلِ المضارعِ بعد لامِ الجحودِ، في قولِه: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾؛ لأنَّ المضارعَ يدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ والاستمرارِ والتَّوقيتِ، فأفادت صيغةُ المضارعِ أنَّ العذابَ موقوتٌ ببقاءِ الرَّسولِ بينَهم، وبقاؤهُ ﷺ ليس ثابتًا بل لا بدَّ أن يزولَ.

موقعُ جملةِ الحالِ:

جملةُ ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ حاليَّةٌ، والحالُ قيدٌ، والنَّفيُ في الكلامِ راجعٌ إلى القيدِ، أي: وما كان اللهُ ليعذِّبَهم حالَ كونك فيهم، وفي هذا دلالةٌ على فضلِه على العالمينَ؛ إذ إنَّهُ سببُ عدمِ استئصالِ الكافرينَ بالعذابِ، ما دامَ فيهم ﷺ.

بلاغةُ التَّعريفِ بالضَّميرِ:

تكريمُ النَّبيِّ ﷺ وتشريفُهُ بنوعِ اختصاصٍ في الخطابِ

ذكرَ الضَّميرَ (أنت) - وهو ضميرُ المخاطبِ - تشريفًا وتكرمةً للنَّبيِّ ﷺ وبيانًا لمكانتِه عند ربِّه، أي: أنت دونَ غيرِك، قال ابن عاشورٍ: "وفي توجيهِ الخطابِ بهذا إلى النَّبيِّ ﷺ واجتلاب ضميرِ خطابِه بقولِه: (وأنت فيهم) لطيفةٌ من التَّكرمةِ؛ إذ لم يقل: (وما كان اللهُ ليعذبهم وفيهم رسوله)"[2].

وكذلك كانَ في توجيهِ الخطابِ لهُ ﷺ ردٌّ على تحدّيهم وسخريَّتهم بالنَّبيِّ ﷺ.

دلالةُ استعمالِ الظَّرفيَّةِ:

دلَّ حرفُ الظَّرفيَّةِ (في) في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ على

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: 9/72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.

مـؤدَّى الظَّـرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ واحدٌ وهو انتفاءُ الاسـتـئـصـالِ ببقائِهِ ﷺ

الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ، أمّا الزَّمانيَّةُ؛ فهي تشملُ مدَّةَ حياتِه ﷺ وقد ذكرَها النَّبيُّ ﷺ فيما رواهُ الترمذيُّ عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أنزلَ اللهُ عليَّ أمانين لأمَّتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفارَ إلى يومِ القيامةِ»[1]، وروِيَ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ قال: (كانَ فيكم أمانان مضتْ إحداهُما، وبقيتِ الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾)[2].

وأمّا الظَّرفيَّةُ المكانيَّةُ؛ فإن كان المقصودُ وجودَهُ في مكَّةَ، فيكونُ على رأي من فسَّرَ العذابَ بغيرِ عذابِ الاستئصالِ، وأنَّهُ قد وقعَ بهم بعد هجرتِه ﷺ في غزوةِ بدرٍ وفتحِ مكَّةَ وغيرِهما من مواطنِ نصرتِه عليهم، وإن كانَ المقصودُ بالظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ أيَّ مكانٍ أقامَ بهِ النَّبيُّ ﷺ فيكونُ على رأي من فسَّرَ العذابَ بعذابِ الاستئصالِ، وعلى هذا القولِ يكونُ مؤدَّى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ واحدًا.

بلاغةُ عَطفِ الجمل:

فتحُ بابِ الأمانِ مـن الـعـذابِ قيمةٌ داعيةٌ إلى الـهـدايـةِ بعدَ الغوايةِ

لمّا كانَ قيدُ نفي العذابِ عنهم في الجملةِ الأولى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ هو وجودُ النَّبيِّ ﷺ فيهم وهذا ليس مما يستمرُّ بل يزولُ البتَّةَ، فيحدثُ التَّعذيبُ؛ أتى العطفُ بالجملة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الَّتي تفيدُ نفيَ العذابِ عنهم طالما أنَّهم يستغفرونَ، أي: جعلَ الاستغفارَ مانعًا ثابتًا من وقوعِ العذابِ، وفي هذا ترغيبٌ وتذكيرٌ بالتَّوبةِ من الشِّركِ بطلبِ المغفرةِ من ربِّهم بأن يؤمنوا بأنَّهُ واحدٌ، ويصدِّقوا رسولَهُ، فهو وعدٌ بأنَّ الاستغفارَ يدفعُ عنهم العذابَ، فيكونونَ في مأمنٍ منه طالما يستغفرونَ، وفيه

(1) سنن الترمذي، باب ومن سورة الأنفال، رقم: 3082.
(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم: 2014.

ندبٌ لهم إلى الاستغفارِ، وتعليم لما يدفعُ العذابَ عنهم، وهذا زيادةٌ في الإعذارِ لهم[1].

سرُّ اختلافِ التَّعبيرِ بينَ المتقابلات:

الجناسُ يعطي جمـاليَّـةً في السَّمعِ، ويلفتُ الانتباهَ إلى سرِّ في النَّظمِ

بين اللَّفظين: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ وقولِه: ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ جناسٌ ناقصٌ مضارعٌ اختلفا في نوعِ حرفٍ واحدٍ منهما، وأعطى جماليَّةً في السَّمع، ولفتَ الانتباهَ إلى سرِّ هذا الاختلافِ في النَّظم، وهو اختلافُ التَّركيبِ في استعمالِ الصّيغةِ الاسميَّةِ والفعليَّةِ الذي أحدثَ أثرًا أسلوبيًّا، فالفعلُ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ مقيَّدٌ بزمنٍ معيَّنٍ، واسمُ الفاعلِ ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ ثابتٌ غيرُ محدودٍ بزمنٍ.

موقعُ جملةِ الحالِ:

الجملةُ حاليَّةٌ واختلفَ معناها بسببِ تعيينِ مرجعِ الضَّميرِ

جملةُ ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حالٌ من الهاءِ في ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ وهم المشركونَ، ولكنَّ المفسِّرينَ اختلفوا في تفسيرِ الآيةِ بناءً على اختلافِهم في عودِ ضميرِ (هم) في قولِه: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]، فمنهم من جعلَهُ عائدًا إلى مفهومٍ من الكلامِ، يدلُّ عليه يستغفرونَ؛ فإنَّهُ لا يستغفرُ اللّهَ إلّا المسلمونَ[3]، ويكونُ المعنى: (وما كان اللّهُ ليعذِّبَ الكفّارَ حالَ كونِ المؤمنين بينهم يستغفرونَ).

ومنهم من جعلَهُ عائدًا على المشركينَ، فإمّا أن يكونَ المعنى: (وما كان اللّهُ معذِّبَهم وفي أصلابِهم من سبق له في علمِ اللّهِ أنَّه يؤمنُ ويستغفرُ)، أو (وما كان اللّهُ معذِّبَ الكافرين، وهم بحال توبةٍ واستغفارٍ من كفرِهم لو وقع ذلك منهم، أي: لو استغفروا)، وهذا يرجِّحُهُ ابن عاشورٍ، إذ يقول: "حالٌ مقدَّرةٌ، أي: إذا استغفروا اللّه من الشِّركِ، وهذه حَسُنَ موقعُها هنا أنَّها جاءت قيدًا لعاملٍ منفيٍّ، فالمعنى: وما كان اللّهُ معذِّبَهم لو استغفروا"[4].

(1) الخفاجي، حاشيته على البيضاوي: 4/271، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/521 - 522، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/399.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

بلاغةُ التَّعريفِ بالضَّميرِ:

أُسنِدَ الاستغفارُ إلى ضميرِ الجميعِ (هم)؛ لوقوعِهِ فيما بينَهم، ولجعلِ ما صدرَ عنِ البعضِ كما قيلَ بمنزلةِ الصّادرِ عن الكلِّ[1].

استغفارُ عمومِ الأمَّـــةِ دافـعٌ لـعـذابٍ واقـعٍ على عمومِها

كما أنَّ هذا الضَّميرَ لتأكيدِ أهميَّةِ الاستغفارِ في حياةِ الأفرادِ والجماعاتِ، وأنَّه من أسبابِ أمانِ هذه الأمَّةِ من عذابِ اللّهِ سبحانه.

سرُّ تغايُرِ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ والفعليَّةِ:

الاستغفارُ سببٌ مستمرٌّ في دفعِ الـعـذابِ، أمّـا بقاءُ النَّبيِّ ﷺ فمؤقَّتٌ

التَّركيبُ المتمثِّلُ بتغايرِ التَّعبيرِ بالاسميَّة والفعليَّةِ في الآيةِ أحدثَ أثرًا أسلوبيًّا في استعمالِ الصّيغةِ الاسميَّةِ والفعليَّةِ، فجعلَ لكلٍّ منهما وظيفةً جماليَّةً تختلفُ عنِ الأخرى، فعبَّرَ بالفعلِ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، وهو مقيَّدٌ بزمنٍ معيَّنٍ، والقيدُ الواردُ عليهِ هو حالُ وجودِ النَّبيِّ ﷺ فيهم، وعبَّرَ باسمِ الفاعلِ ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾، وهو ثابتٌ غير محدودٍ بزمنٍ، والقيدُ الواردُ عليهِ هو قيدُ الاستغفارِ، فذكرَ الحالةَ الثّابتةَ بالصيغةِ الاسميَّةِ والحالةَ الموقوتةَ بالصّيغةِ الفعليَّةِ، فكانَ الاستغفارُ مانعًا ثابتًا من العذابِ بخلافِ بقاءِ الرَّسولِ بينهم، فإنَّ العذابَ موقوتٌ ببقاءِ النَّبيِّ بينهم، وهذا هو السِّرُّ في تخالُفِ النَّظمِ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ وبين قولِهِ سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وهذا من كرمِ اللّهِ ورحمتِهِ الَّتي وسعت كلَّ شيءٍ؛ إذ يدفعُ ربُّنا العذابَ عنهم، ولو لم يكنِ الاستغفارُ صفةً ثابتةً فيهم، ولا يهلكُهم حتى يكونَ الظُّلمُ صفةً ثابتةً فيهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: 59][2].

نكتةُ حذفِ مفعولِ:

حذفَ النَّظمُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ لإفادةِ العمومِ، أي: ليذهبَ الذِّهنُ كلَّ مذهبٍ يمكنُ أن يصلَ إليهِ، فيشملُ الاستغفارَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/187.
(2) السامرائي، لمسات بيانية: 5/164.

من كلِّ الذُّنوب الَّتي تتعلَّق بحياةِ الأمَّةِ أفرادًا وجماعاتٍ، بدءًا من المجالِ العقديِّ ثمَّ التَّشريعيِّ ثمَّ الأخلاقيِّ ثمَّ التربويِّ والتَّعليميِّ والاقتصاديِّ والاجتماعيِّ والسّياسيِّ، حتى يصلَ الاستغفارُ إلى أدقِّ شؤونِ الإنسانِ ممّا لَهُ اتِّصالٌ بما يحفظُ كيانَ الأمَّةِ كلِّها من الاستئصالِ والزَّوالِ الكاملِ.

الاستغفارُ سلوكٌ عامٌّ في كلِّ شؤونِ حياةِ الأمَّةِ غيرُ خاصٍّ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ

بلاغةُ الكنايةِ:

نصَّ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على عدمِ استجابتِهِ سبحانه لطلبهِم في نزولِ العذابِ، وتقييد نفي العذابِ بحالِ كونِهم يستغفرونَ على اختلافِ معانيها كنايةٌ عن أنَّ العذابَ يوشكُ أن يقعَ عليهم؛ إن لم يستغفروا، ويتوبوا، ويرجعوا عن كفرِهم، ويدخلوا الإسلامَ، وهي كنايةٌ عرضيَّةٌ كما يسمّيها ابنُ عاشورٍ، أي: في الآية تعريضٌ بهذا العذابِ[1].

التَّرهيبُ بتصوُّرِ وقوعِ العذابِ والتَّرغيبُ بدفْعِ أسبابِهِ بالاستغفارِ

وكنايةٌ عن رحمتهِ ﷻ، فكأنَّهُ يحضُّهم على التَّوبةِ، ويرغِّبُهم بها حتَّى لا ينزلَ بهم العذابُ، فهو وعدٌ بأن التَّوبةَ من الشِّركِ تدفعُ عنهم العذابَ، وتكونُ لهم أمنًا، وذلك هو المرادُ بالاستغفارِ؛ إذ مِنَ البَيِّن أنَّه ليس المرادُ بقولهِ: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أنَّهم يقولونَ: غفرانَكَ اللهمَّ ونحوه؛ إذ لا عبرةَ بالاستغفارِ بالقولِ، والعملُ يخالفُهُ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ تحريضًا - وذلك في الاستغفارِ - وتلقينًا للتَّوبةِ زيادةً في الإعذارِ لهم على معنى قولِه تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: 147][2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستغفارُ والتَّوبةُ:

الفرقُ بينهما من وجهين:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.

أحدُهما لفظيٌّ، وهو أنَّ مادَّةَ الاستغفارِ في اللُّغةِ: من الغَفْرِ: إلباسُ الشَّيءِ ما يصونُهُ عنِ الدَّنسِ، وأصلُهُ مِنَ التَّغطيةِ والسَّتْرِ[1].

التَّـوبـةُ: نـدمٌ ورجـــوعٌ عـن الـــذَّنـــبِ، والاسـتـغـفـارُ: طـلـبُ المـغـفـرةِ بـالـدُّعـاءِ وتـرْكِ المعاصي

وأمّا التَّوبةُ في اللُّغةِ: مِنَ التَّوبِ وهو الرُّجوعُ، وخصَّهُ بعضهم بالرُّجوعِ عنِ المعصيةِ إلى الطّاعةِ، و(تاب إلى) معناهُ: رجوعُ العبدِ عن ذنبِهِ إلى طاعةِ اللّهِ[2].

والآخرُ: معنويٌّ، وهو أنَّ الاستغفارَ: طلبُ المغفرةِ مِنَ اللّهِ تعالى بالدُّعاءِ والتَّوبةِ أو بغيرِهما من الطّاعة، أي: طلبُ تغطيةِ ذنوبِهِ وسترِها والعفوِ عنها، وأن يصونَهُ من أن يمسَّهُ عذابٌ، وأمّا التَّوبةُ، فهي النَّدمُ على الخطيئةِ مع العزمِ على تركِ المعاودةِ إلى الذَّنب الَّذي تابَ عنْهُ.

إذًا: فالتَّوبةُ: نوعٌ مِنَ الاستغفارِ، وهي مقدِّمةُ الاستغفارِ؛ إذ لا بدَّ من النَّدمِ مع الاستغفارِ؛ لأنَّهُ لا يجوزُ الاستغفارُ مع الإصرارِ على الذَّنبِ، وكأنَّ التَّوبةَ طلبُ وقايةِ شرِّ ما يُستقبلُ، والاستغفارُ: وقايةُ ما مضى[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر)، والراغب، المفردات، ص: 609، وابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب)، والراغب، المفردات، ص: 169، وابن منظور، لسان العرب: (توب).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 93، والنزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 28.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»